

علاقة الوحي بالتاريخ

ولهی حمنه
باحث جزائري



قسم الدراسات الدينية

مقدمة:

يحتل موضوع الوحي حيزاً صغيراً ضمن منظومة فكرية عملاقة كانت تهيمن على العالم القديم إلى غاية عصر النهضة الأوروبية، لذا فإن دراسة هذا الموضوع أو المبحث يجب أن تتم داخل تلك المنظومة ومن خلالها، ذلك أن عملية العزل تؤدي إلى فقدان الموضوع لمرتكزاته وعلاقته داخل المنظومة. إن عملية البتر التي يقوم بها بعض الدارسين لمبحث الوحي ثم جره ليدرس وفق الأسس والمناهج المعاصرة؛ أي إقحامه داخل المنظومة الفكرية الحديثة والمعاصرة تؤدي بالضرورة إلى اغتراب الموضوع والحكم عليه تاليًا بالغموض أو التهافت.

نحن في بحثنا هذا، نود أن ندرس الوحي، وهو في محطيه الطبيعي بمحدداته الفلسفية والفكرية والأسطورية والثقافية بصفة عامة. يعني هذا أننا ننقد الوحي ونبذ الإشكاليات التي أفرزها داخل منظومته - حتى لا نحاكم الماضي بالحاضر - ثم بعد ذلك نتوسل بالمناهج الحديثة، لنرى إن كان الوحي يملك من المقومات ما يؤهله للاندماج في المنظومة الحديثة كما يعتقد الكثير من المؤمنين، أو أنه ابن بيته يقوم بوجودها وينتفي بعدها.

إن ما يسهل هذه الدراسة هو كون العالم الإسلامي ما زال مهيمناً عليه من طرف المنظومة التقليدية؛ أي أن موضوع الوحي مازال معاشاً ومؤثراً، ما يجعل تعقله وفهم إشكالياته في المتداول. غير أن هناك صعوبة تقابلها هي محاولة خلخلة تلك المنظومة وإبراز مواطن الخلل والانسداد فيها، ما يعد خطوة غير مقبولة أو على الأقل استفزاز لمشاعر الجماهير الواسعة، لكن لابد من القيام بهذا العمل.

1- منظومة العالم القديم:

سوف لا نتناول كل العالم القديم، بل سنركز على الحيز محل الدراسة، والذي يمثل بلاد فارس واليمين وشبه الجزيرة العربية صعوداً إلى بلاد الشام وبيزنطة، ثم نمر عبر بلاد اليونان فروما ومصر. هذا الحيز هو الذي تبلورت فيه المنظومة الفكرية السالفة الذكر، من خلال حركات الهجرة والحروب والتوسع، وما يتبع ذلك من امتزاج الثقافات والأديان، وأيضاً حركة التجارة متمثلة في طريق الحرير والتبادلات التجارية المحلية. ويمكن القول إن مدينة الإسكندرية، تلك المدينة العالمية المتعددة الأجناس والثقافات، شكلت في القرن الأول للميلاد النواة الأولى لتلك المنظومة بعد امتزاج ديانات الشرق وثقافاته بفلسفة اليونان،⁽¹⁾ حيث برز فيها

¹- أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الأهلية للنشر والتوزيع القاهرة ص ص 280-294. وانظر أيضاً: ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة اليونانية، ص ص 292-301

أفلاطين (270-205) ليكون الشارح والناطق باسم تلك المنظومة وفيها يظهر الله فوق العالم، باعتباره الامتناهي المطلق، حيث يستحيل على العقل إدراكه والإحاطة به، ولا يوجد أي اتصال أو تواصل مباشر بينهما، لذا وجدت الملائكة والأرواح والشياطين لشغل تلك الفجوة وضمان التواصل الذي اصطلاح عليه في اللغة العربية بالوحي الذي يعني الإعلام السريع والخفي، وهو أنواع حسب طبيعة الفاعلين في العملية.

2- مفهوم الوحي:

سوف ندرس نوعاً معيناً، وهو المتضمن في الآية التالية:

قال تعالى: "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإننه ما يشاء إنه علي حكيم" [الشورى (51)].

إن التفاسير الكثيرة والمتنوعة والمختلفة اختلاف المذاهب والفرق الإسلامية، يجعل من تحديد مفهوم للوحي يكون ملائلاً للإجماع، مطلب يصعب تحقيقه. لذا، جعلنا المذهب المهيمن، وهو مذهب أهل السنة والجماعة كقاعدة ومرجع لكل فهم أو نقد، واتخذنا من بقية الفرق سندًا، إما لتدعيم الرأي السائد أو تعديله أو نقده.

يفسر الفخر الرازي (ت 606هـ) الآية السابقة، فيقول: (ما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة أوجه، إما على الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام كما أولى الله إلى أم موسى وإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده... وإما على أن يسمعه من غير واسطة مبلغ، وهذا أيضاً وحي بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة... وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحي إلى الرسول البشري).⁽²⁾ إذن، هناك ثلاثة أشكال للوحي، ومع أن الشكل الأول والثاني يثيران إشكاليات وتساؤلات عده حول تواصل الله مع مخلوقاته، إلا أننا سنركز على الشكل الثالث، وهو (الوحي غير المباشر عن طريق الرسول الملك... وهي الطريقة التي تم بها إلقاء القرآن أو تنزيله).⁽³⁾ ذلك لأننا نطابق بين المفاهيم الثلاث التالية، وهي (الوحي، القرآن، النبوة) من جهة كون القرآن هو كتاب الله المنزل على سيدنا محمد عن طريق الملك جبريل، والنبوة (هي بعثة قوم قد خصهم الله تعالى بالحكمة والفضيلة والعصمة... فعلمهم الله تعالى العلم بدون تعلم)⁽⁴⁾

²- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج 27، ط 1، مطبعة التزام عبد الرحمن محمد، القاهرة، ص 142

³- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 47

⁴- ابن حزم، الفصل في الملك والهوا والنحل، ج 1، ص 140

وقول آخر لابن حزم (الوحي الذي هو النبوة قصد من الله تعالى إلى إعلام من يوحى إليه بما يعلمه به).⁽⁵⁾
والغرض من هذه المطابقة هو التحديد الدقيق لمفهوم الوحي وبيان مضمونه وكذا الأطراف الفاعلة فيه.

يمكن القول إذن، إن الوحي هو القرآن الذي أنزله الله على محمد بن عبد الله بواسطة الملك جبريل، والذي بتلقّيه له صارنبياً.

إن تحليل القول السابق، يكشف عن بنية أنطولوجية، وأخرى تواصلية تفرزان إشكاليات عديدة نحاول مناقشتها فيما يلي:

أ- البنية الأنطولوجية:

تتشكل البنية الأنطولوجية للوحي من ثلاث طبقات وفق ترتيب تنازلي يشغل الله الطبقة الأولى ثم جبريل في الثانية، وفي الطبقة الثالثة نجد النبي محمد بن عبد الله. والطبقات هاته من الصعب دمجها لتشكيل بنية، نظراً لاختلاف الكل في بينها في الجوهر والأعراض^(*). يظهر هذا الاختلاف بعد بيان ما يلى:

أ. الله: يعرفه الفخر الرازي بأنه واجب الوجود لذاته، أي أن حقيقته لا تقبل العدم أصلًا وما دام هو كذلك، فإنه يجب أن يكون قديماً أزلياً باقياً أبداً⁽⁶⁾. ويرد عليه ابن تيمية بأن الله تعالى ليس كمثله شيء... هو إله واحد، فوق عرشه استوى... كل صفة أوردها عن نفسه في القرآن نقر بها - كما نطق بها- بلا تأويل ولا تشبيه.⁽⁷⁾ هذا الخلاف، لا يعدو أن يكون ظاهرياً فقط، ذلك أن كلا العالمين يستندان - حين التصور أو التعريف - إلى أصول أشعرية (عدلت فيما بعد بعض الشيء لتصبح أصول أهل السنة والجماعة). يقول الأشاعرة: إن معرفة الله تعالى واجبة بالشرع وأنه لا يجب إيمان ولا يحرم كفر قبل ورود الشرع⁽⁸⁾. والمقصود بالشرع، القرآن بالدرجة الأولى، حيث نجد الكثير من الآيات التي تعلم عن ذات الله وصفاته، تارة بالتنزيه المطلق، حيث لا شيء يماثله - ليس كمثله شيء - وتارة بالتجسيم متمثلًا في العين واليد والاستواء على العرش والكلام والسمع والإبصار. وبجمع آيات الذات والصفات وتصنيفها وترتيبها، لا نكاد نحصل إلا على تصور ضبابي مشوش وغير منسجم. لكن شارح العقيدة الطحاوية يجعل من إمكانية التصور للذات الإلهية مستحيلة، لأن هذه الأخيرة فوق طاقة البشر. يجب الالتفاء بما فرره أهل السنة واتفقوا عليه من (أن الله ليس كمثله شيء، لا في

١٩-١٧ ص ص ٥، ج ٥، مرجع سابق

^(*) نذكر القاريء بأننا نحل ونناقش وفق آليات المنظومة الفكرية للعالم القديم.

⁶ فخر الدين الرازي، الأربعين في أصول الدين، مكتبة الكليات الأزهرية، ص 232

⁷ مقدمة كتاب: الأربعين في أصول الدين، ص 23

⁸ - أحمد بن عوض الله العربي، الماتريدية... دراسة وتقديم، دار الصميمعي- المملكة العربية السعودية، ص 497

ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله... وأن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات: (ف) ليس كمثله شيء، رد على الممثلة المشبهة، وهو السميع البصير رد على النفاهة المعطلة؛ فمن جعل صفات الخالق، مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم.⁽⁹⁾

إن هذا التسليم من جانب أهل السنة والجماعة لما جاء في القرآن، قابلته ردود كثيرة من طرف باقي الفرق تتراوح ما بين مؤيد لما جاء به القرآن مع السعي لتبريره، وبين مؤول وآخر منكر فيما يتعلق بالذات أو الصفات. غير أننا لا نورد إلا ما يخص موضوعنا الذي هو الوحي، وبالتالي سوف نركز على صفة الكلام، والتي يرتبط نزول القرآن بفهم ماهيتها وكيفياتها ودرجاتها إن وجدت.

طبعاً أهل السنة والجماعة يقررون بكون الله متكلم لورود ذلك في الشرع، لكن صفة الكلام هاته لا يعلم كيفيتها إلا هو، فيجب الاكتفاء بالتسليم لدلاله هذا الفعل على صحة الإيمان وقوته. وقد أنكر عليهم الفخر الرازى هذا التسليم، وركز على الحنابلة بصفة خاصة^(*). أما العقلاة من الناس - كما يصفهم - فقد اتفقوا على أن الكلام المشكك من الحروف والأصوات كائنة بعد أن لم تكن، وحاصلة بعد أن كانت معدومة. لكن اختلفوا في القول أنها مخلوقة في جسم كما يرى المعتزلة، أم حادثة وقائمة بذات الله كما يرى الكرامية، أو كما يزعم الأشاعرة من أن كلام الله صفة قديمة منزهة عن الحرف والصوت (الكلام النفسي). ويورد الرازى رأياً لأبي منصور الماتريدي يراه قريباً من رأى المعتزلة⁽¹⁰⁾، والماتريدية عموماً تذهب على أن كلام الله لا يسمع، إنما يسمع ما هو عbara عنه، فموسى، إنما سمع صوتاً وحروفاً خلقها الله دالة على كلامه.⁽¹¹⁾ إن هذا التفصيل في ذات الله وصفة من صفاته (وهي الكلام) نجده ضرورياً لتوظيفه في مناقشة إشكاليات البنية التواصلية التي سنعرض لها في الصفحات التالية.

أ.2. الملك جبريل: ويشغل الطبقة الانطولوجية الثانية، وهو مخلوق نوراني لقول الرسول (ص) في حديث أخرجه مسلم في صحيحه، يقول: "خلق الملائكة من نور وخلق الجن من مارج من نار".⁽¹²⁾ هاته الطبيعة تؤهله للانتقال بين الطبقتين، وبالتالي امتلاكه لصفات وخصوصيات تمكنه من ذلك. لكن هل هذا ممكن؟ يقود هذا التساؤل إلى طرح مشكلة الاتصال في البنية الفكرية للعالم القديم السالف الذكر.

⁹- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، مؤسسة الرسالة، ص 57

^(*) يمكن الرجوع إلى مناقشة الرازى بتوسيع في: التفسير الكبير، ج 27، ص ص 138-146

¹⁰- الفخر الرازى، التفسير الكبير، الترجم عبد الرحمن محمد، القاهرة، ص 144

¹¹- أحمد بن عوض الله الحربي، مصدر سابق، ص 499

¹²- نقل عن جابر الجزائري أبو بكر، عقيدة المؤمن، ص 14

إذا كان أفلوطين قد سلم أو صادر على المطلوب في هذه القضية نظراً لتكوينه الهجين ومناخ الإسكندرية الذي سمح بتعايش الثقافات المختلفة والمتناقضة أحياناً، ما انعكس على فكره وجعله يتقبل كل ما هو غامض ومتشوش ومتناقض، فإن أسلافه من الفلاسفة قد أرّه قيم هذا الأمر - أي مشكلة الاتصال - وبذلوا جهوداً مضنية حلها، إذ نجد أفلاطون بعد أن قسم الوجود إلى حقيقي حده بعالم المثل، وجود زائف أو مجرد ظلال متمثل في الطبيعة أو عالم الإنسان. ولم يلق في ذلك عناء كبيراً إلا فيما يتعلق بكيفية الاتصال أو الترابط بين المثل بعضها البعض أو بين المثل ونسخها الأرضية. إن الجدل النازل هو الحل عند أفلاطون، لكنه يعترف أن بعض المثل فقط يمكنها أن تترابط دون أن يبين نوع الترابط.⁽¹³⁾ هذا يخص المثل فيما بينها، أما اتصالها مع نسخها، فهو أمر عجز عن إيجاد حل ملائم له، فلجاً إلى اللغة الشعرية، حيث افترض واسطة على شكل كرة تربط بين المثل ونسخها.⁽¹⁴⁾ جاء تلميذه أرسطو وتصدى للمشكلة بأن عوض الجدل بالمنطق، وبدل مفارقة المثل الكلية لنسخها، فإن الكلي المطلق عند أرسطو لا يوجد بمعزل عن الجزئي؛ أي أن الكلي ليس مفارقأً، بل هو حال في النسخ أو الأفراد.⁽¹⁵⁾ ولمعرفة كيفية الاتصال يكفي الاستعانة بالمنطق ومقولاتة ومبادئه للعقل وأقيسته. إن منطق أرسطو حق المطلوب بدقة إلا ما تعلق بالمحرك الذي لا يتحرك؛ فقد فصله عن العالم واستثناه من منطقه لما يترتب عن ربطه أو إ يصله من مشكلات تكاد تعيد ما طرح عند أفلاطون. إذن، فالمسألة الأساسية بقيت دون حل.

إن الغرض من مناقشة مشكلة الاتصال هو اختصار الطريق عند مناقشة مشكلة التواصل.

أ.3. النبي (الرسول): إذا كان الأشاعرة ومن بعدهم أهل السنة والجماعة حتى يومنا هذا، يفرقون بين النبي والرسول، فإننا نأخذ برأي المعتزلة الذي يوحد بينهما، إذ ما الهدف من النبوة غير تبليغ الناس رسالة السماء وهدایتهم.⁽¹⁶⁾ والمقصود هنا هو محمد بن عبد الله الذي نشأ وشب يتيمًا فقيراً راعياً للغنم، وعمل في التجارة واتصف بالصدق والأمانة، وتزوج خديجة بنت خويلد، وتحنث وتحنف زماناً، حتى أتاه الوحي في غار حراء.

هذه اللحمة تبين بشرية النبي، فهو إذن ينتمي إلى الطبقة الثالثة - أي الإنسان-. وقد عرفه الأشاعرة بأنه مخلوق كسائر مخلوقات الله فهو خاضع لإرادته ومشيئته، وحتى أفعاله مخلوقة، وما عليه إلا اكتسابها وفق

¹³- جول تريكو، *المنطق الصوري*، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، ص ص 32-33

¹⁴- ولترستيس، *تاريخ الفلسفة اليونانية*، ص ص 167-170

¹⁵- جول تريكو، *المصدر السابق*، ص 68

¹⁶- شايب لحضر، *نبوة محمد في العصر الاستشرافي المعاصر*، مخطوط رسالة الدكتوراه، ص 3

نظرية في "الكسب".⁽¹⁷⁾ ويافق المعتزلة الأشاعرة من كون الإنسان مخلوق إلا أنه قادر خالق لأفعاله خيرها أو شرها.⁽¹⁸⁾

إن بشرية النبي وكونه من مخلوقات الله مجبر في أفعاله أم مخير تمهد الطريق لمناقشة مسألة النبوة والوحي.

بـ. البنية التواصيلية:

ونعني بها تلك البنية التي تتشكل من مرسل ورسول ومرسل إليه؛ فالله هو المرسل وجبريل هو الرسول والنبي هو المرسل إليه. هذه البنية التي يحكمها "الفعل" ترتكز على البنية السابقة التي يحكمها "الوجود"، نعني بذلك أن كل قول في هاته البنية لا يستمد شرعيته إلا باستدعاء البنية الأنطولوجية.

بـ.1. طريقة التواصل: نبدأ القول بذكر ما قرره أهل السنة والجماعة من كون الوحي هو رسالة من الله إلى نبيه بواسطة جبريل، وتفصيل ذلك أن الله تكلم بالصوت والحرف إلى جبريل الذي فهم الرسالة وبلغها للنبي بالصوت والحرف، والذي بدوره استوعب الكلام وبلغه للناس.

فالقرآن الذي نقرأه اليوم والمدون في المصاحف هو كلام الله، وهو نفسه المحفوظ في اللوح المحفوظ؛ فهو مقدس، لذا يتبعه بتلاوته، ولا يجوز التبعد بترجمة له إلى لغة غير العربية، فهو نزل بلسان عربي مبين. أما محتواه من قصص وأخبار وأحكام وغيرها، فهي صحيحة وصادقة ونهائية وأزلية. هذا التوصيف هو السائد اليوم والمهيمن لدى الفئة الغالبة من المسلمين. لكن هل هي مؤسسة ويمكن القبول بها دون أن تثير إشكاليات وتساؤلات؟

طبعاً لا، فالمرسل الذي هو الله مطلق قديم أزلية لا يمكن أن يتواصل مع الرسول جبريل المخلوق والمحدث بطريقة مباشرة، لذا تبني الأشاعرة فكرة الكلام النفسي لله، والذي يمكن سماعه في خلق إدراك في المستمع⁽¹⁹⁾، وقالت المعتزلة أن الرسالة (القرآن) هو كلام الله ووحيه المخلوق المحدث⁽²⁰⁾، بمعنى أن الله خلق القرآن كما خلق الإنسان وغيره من الكائنات. فكما خلق الإنسان من تراب، خلق القرآن من لغة العرب، لكن في

¹⁷- الياقلاني، تمهيد الأول وتألخيص الدلائل، ط3، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان، ص 344

وأيضاً الشهريستاني، الملل والنحل، ج 1، دار صعب - بيروت 1986، ص 97

¹⁸- القاضي عبد الجبار، المعنى في أبواب العدل والتوحيد، ج 8، دار الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية، ص 3 وأيضاً البغدادي، الفرق بين الفرق، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ص 116

¹⁹- أحمد بن عوض الله الحربي، الماتريدية... دراسة وتقويم، ص 499

²⁰- المصدر السابق.

أرقى صورة من حيث اللفظ والتركيب والأسلوب، وأيضاً من حيث المضمون. أما الماتريدية، فذهبت إلى أن كلام الله لا يسمع، وإنما يسمع ما هو عبارة عنه، ويخلق الله لها صوتاً وحروفًا⁽²¹⁾ نشير إلى أننا لا نود أن نوسع النقاش، ليشمل الشيعة والمتصوفة وال فلاسفة، ذلك حتى نبين أن هناك فعلاً إشكاليات داخل فكر أهل السنة والجماعة، وليس مجرد جدل عقيم ومحاجات الهدف منها الانتصار للمذهب لا غير. إذن، فالتواصل بين المرسل والرسول والمرسل إليه تعرّضه لإشكاليات، حاول علماء الكلام إيجاد المخرج لها، فعواضوا "الخلق" بـ"التواصل" دون أن ينتبهوا إلى أنهم أعادوا المشكلة إلى البنية الأنطولوجية، حيث يعد الخلق مرادفاً للاتصال. أما وقد فصلنا القول في أن الاتصال محال وجودياً، فالتواصل ك فعل يستحيل هو أيضاً

بـ 2. لغة التواصل: يقر أهل السنة والجماعة بأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، بمعنى أن الله تكلم بالعربية إلى جبريل أو أنه دون القرآن في اللوح المحفوظ باللغة العربية قطعاً، وقام جبريل بالقراءة منه بعد أن أفهمه الله، ثم نقله إلى النبي محمد بن عبد الله.⁽²²⁾ هذا الرأي الذي يجعل اللغة العربية أزلية، يجد من يعارضه من علماء اللغات واللسانيات والفيلولوجيا، ذلك أن اللغة البشرية تاريخية المنشأ، بدأت على شكل أصوات وإشارات وانتهت إلى ما هي عليه الآن⁽²³⁾، وللهجة العربية ليست استثناءً بالطبع. بهذا لا يمكن لأكثر الآراء وجاهة ومنطقاً، وهو رأي المعتزلة أن يصد طالما افترضوا أن الخلق للغة كان في أحسن تقويم؛ أي لم تخضع للتطور. وللتفصيل أكثر، فإن اللغة العربية هي لغة الحجاز (وكانت قبل الإسلام لغات عدّة تعرف بلغات القبائل، وبينهما اختلاف في اللفظ والتركيب كلغات تميم وربيعة ومصر وقيس وهذيل وقضاء وغيرة).⁽²⁴⁾ وقد نمت بفعل حركة التجارة إلى الشام والعراق ومصر وببلاد اليمن وببلاد فارس، فضلاً عن دور الكعبة في اجتماع الأمم المختلفة كالفرس والأنباط واليمنيين والأحباش والمصريين، إضافة إلى اليهود والنصارى⁽²⁵⁾، ما ساهم في ثراء اللغة ودخول الألفاظ الأعممية وتعربيها. هذا عن الصوت، أما الحرف فهناك من ذهب إلى أن الخط العربي انبعث عن الخط المسند الحميري، ورأى آخر يرى أن الكتابة العربية هي استمرار وتطور للكتابة النبطية التي انحدرت من الكتابة الأرامية المتطوره عن الفنيقية.⁽²⁶⁾ أما بعد الإسلام فمعروف ما قام به أبو الأسود الذهبي والفاراهيدي من تنقيط وشكل حتى تسهل قراءتها بعد شيوخ اللحن.

المصدر السابق.²¹

²²- الزركشى، البرهان فى علوم القرآن، نقلًا عن نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص، ص 48

²³ ر.ه. روینز موجز تاريخ اللغة في الغرب، سلسلة عالم المعرفة رقم 277

²⁴- جـلي زـيدـانـ تـارـيـخـ أـدـبـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ، جـ1ـ، سـلـسـلـةـ الـأـئـيـسـ-الـجـزـائـرـ، صـصـ 59-60

المصدر السابق.²⁵

²⁶ أحمد حسن الزيات، *تاريخ الأدب العربي*، دار المعرفة بيروت- لبنان، ص 25

إذن اللغة العربية ذات منشاً أرضي، بتعبير آخر هي محدثة متطرفة نسبية، يعني هذا انتقاء التواصـل اللغوي، والذي يتـسق تماماً مع انتقاء الاتصال الأنطولوجي.

بـ.3. محتوى الوصل (الرسالة): على الرغم من الطابع الديني الوثـوقـي لـلـقرآنـ، إلا أن محتواه لا يـتـعدـى المحاورـ الـثـلـاثـةـ التيـ كـانـتـ تحـكـمـ المنـظـومـةـ الفـكـرـيـةـ لـلـعـالـمـ الـقـدـيمـ، نـقـصـدـ الأـنـطـوـلـوـجـيـاـ، وـالـعـرـفـةـ، وـالـقـيـمـ. دـلـيلـ ذـلـكـ أنـ آـيـاتـ الـقـرـآنـ يـمـكـنـ تـصـنـيفـهاـ إـلـىـ ثـلـاثـ مـجـمـوعـاتـ:

المجموعة الأولى، تتضـمنـ إـخـبـارـاـً عنـ الغـيـبـ وـالـخـلـقـ وـمـرـاتـبـ الـوـجـودـ. أماـ المـجـمـوعـةـ الثـانـيـةـ، فـفـحـواـهـاـ دـعـوـةـ إـلـىـ أـعـمـالـ الـعـقـلـ وـالـنـظـرـ فـيـ الـوـجـودـاتـ وـالـتـدـبـرـ، لـيـسـ طـلـباـ لـلـحـقـيقـةـ بـالـمـعـنـىـ الـفـلـسـفـيـ، وـإـنـماـ فـقـطـ لـتـأـكـيدـ وـتـثـبـيـتـ ماـ وـرـدـ فـيـ الـقـرـآنـ. أماـ المـجـمـوعـةـ الثـالـثـةـ، فـهـيـ تـشـتـمـلـ عـلـىـ مـنـظـومـةـ الـقـيـمـ وـالـأـحـكـامـ الـعـمـلـيـةـ وـالـقـصـصـ الـذـيـ يـهـدـ إـلـىـ الـاعـتـبـارـ. بـهـذـاـ يـمـكـنـ القـوـلـ إـنـ رـسـالـةـ الـقـرـآنـ هـيـ رـسـالـةـ لـلـعـالـمـ الـقـدـيمـ، سـاـهـمـتـ فـيـ حـرـكيـتـهـ وـسـيرـورـتـهـ. أماـ مـاـ يـسـتـفـادـ مـنـهـ لـحـاضـرـنـاـ، فـسـنـتـولـىـ مـنـاقـشـتـهـ فـيـمـاـ يـلـيـ:

3- الوحي: تاريخ من الإنجازات والإخفاقات

يعلن القرآن من خلال مضمونه أو من خلال حامليه، أنه رسالة السماء الخالدة والصالحة لكل زمان ومكان، والتي تضـمنـ لـحامـليـهاـ السـعـادـةـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـنـجـاةـ فـيـ الـآـخـرـةـ. غيرـ أنـ تـتـبعـ تـارـيخـ هـاتـهـ الرـسـالـةـ يـكـشـفـ خـفـاياـ وـخـبـاياـ، ظـلتـ لـقـرـونـ عـدـيـدةـ ضـمـنـ الـمـسـكـوتـ عـنـهـ حـسـبـ تـعـبـيرـ مـحـمـدـ أـرـكـونـ؛ أيـ ضـمـنـ الـلـامـفـكـرـ فـيـهـ أوـ مـسـتـحـيلـ الـفـكـرـ فـيـهـ. الـيـوـمـ وـنـحـنـ نـسـتـلـهـمـ مـنـ الـغـرـبـ الـمـنـظـومـةـ الـفـكـرـيـةـ لـلـعـالـمـ الـحـدـيـثـ وـالـمـعـاـصـرـ، وـنـسـعـىـ كـعـالـمـ إـسـلـامـيـ لـلـتـخلـصـ وـالـتـحرـرـ مـنـ الـمـنـظـومـةـ الـقـدـيمـةـ – وـهـذـاـ مـاـ يـقـتضـيـهـ مـنـطـقـ التـارـيخـ. يـمـكـنـنـاـ أـنـ نـفـكـرـ وـلـاـ نـسـكـتـ، فـنـقـولـ: إـنـ الـوـحـيـ (ـالـقـرـآنـ)ـ هـوـ مـشـرـوـعـ مـجـتمـعـ فـرـضـتـهـ ظـرـوفـ مـحـلـيـةـ وـدـوـلـيـةـ عـلـىـ اـمـتدـادـ الـقـرـنـ السـادـسـ الـمـيـلـادـيـ فـيـ أـرـضـ الـحـاجـازـ.

قبل ذلك، كانت العصبية هي التي تحكم العرب وترتبط بينهم، وتجسد ذلك في شكل بناء قبلي سمح لهم أن يعيشوا في ظله قرونًا عديدة حتى أوائل القرن السادس. وأهم ما يميز القبيلة هو قيامها على وحدة الدم والنظام الأبوي واستقلالها السياسي والاجتماعي، مما يجعلها منفصلة ومنعزلة عن محيطها ومنغلقة على نفسها، الشيء الذي يشكل عائقاً أمام التقدم والتطور.⁽²⁷⁾

⁽²⁷⁾- إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليقضة العربية- بيروت، لبنان، ص ص 59-58

بداية من القرن السادس، طرأت ظروف محلية وعالمية جعلت البناء القبلي يهتز، من أهمها انهيار سد مأرب الذي أحدث أضراراً بالغة باقتصاد اليمن وتبعه احتلال الأحباش لها، فاضطررت الأحوال وانحصر النفوذ السياسي لليمن.⁽²⁸⁾ وبما أن شبه الجزيرة تقع في قلب العالم القديم، حيث تمر منها الطرق البرية والبحرية العالمية الرئيسة التي تربط بين الشرق والغرب، وبما أن الحجاز هي المنطقة الأكثر إستراتيجية في شبه الجزيرة، إذ يمر عبرها وموازاتها طريقان رئيسان من طرق التجارة العالمية آنذاك: الطريق الأول البري الذي تسلكه القوافل بين اليمن والشام عبر الطائف ومكة ويثيرب، وتتفروع منه شرايين تتجه صوب الشرق والشمال الشرقي، والثاني طريق البحر الأحمر الموصل إلى الهند وجنوب شرق آسيا، ولذلك كان الحجاز جسر يربط بلاد الشام وحوض البحر المتوسط باليمن والحبشة وشرق إفريقيا والبلاد المطلة على المحيط الهندي.⁽²⁹⁾

استغل العرب هذا الوضع - أي انهيار الوضع في اليمن - وقاموا بمهمة الوسيط بنقل التجارة من اليمن وسواحل إفريقيا الشرقية إلى أسواق فلسطين، وحملوا تجارة بلاد الشام وحوض البحر المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن، وبذلك حصلوا على أموال طائلة. وبما أن التجارة تقضي علماً بالسياسة العامة والعلاقات التجارية، سعى المكيون خاصةً نظراً لمكانتهم لدى العرب- لفهم العلاقات بين فارس والروم، وبين اليمن والحبشة، ومعرفة أحوال هذه الأمم السياسية والاجتماعية والأدبية، مما كان له أثر كبير في تثقيف عقولهم ورقي مداركهم، حتى وصلوا إلى مستوى فكري يؤهلهم لاستيعاب المشروع القادم.⁽³⁰⁾

في شمال الجزيرة حدث شيء مشابه، حيث نشب حرب بين عرب الحيرة والغساسنة، ودامـت مدة انتهـت بموقـعة "عين دباغ" التي قـتل فيها مـلك الحـيرة سـنة 570مـ. وتبـع هـذا اضـطـرابـ فيـ الحـكمـ وـدبـ الضـعـفـ فيـ دـولـةـ المـناـذـرـ، فـاستـغـلـ المـكـيونـ ماـ حدـثـ وأـيـضاـ العـدـاءـ بـيـنـ الفـرـسـ وـالـرـومـ، وـتـولـواـ التـجـارـةـ معـ الفـرـسـ مـنـ جـهـةـ وـالـرـومـ مـنـ جـهـةـ أـخـرىـ.⁽³¹⁾

يتـسـأـلـ أـحـمدـ أـمـينـ، بـعـدـ كـلـ مـاـ حدـثـ (أـتـرـىـ أـنـ هـذـهـ التـجـارـةـ تـقـصـرـ عـلـىـ تـبـادـلـ العـرـوـضـ وـالـنـقـودـ وـلـاـ تـتـعـدـاـهـاـ إـلـىـ الـأـمـورـ الـمـعـنـوـيـةـ وـالـأـدـبـيـةـ؟ـ لـسـنـاـ نـرـىـ ذـلـكـ، بـلـ نـرـىـ أـنـ العـرـبـ اـسـتـفـادـوـاـ فـوـقـ تـجـارـتـهـمـ المـادـيـةـ شـيـءـ مـنـ مـدـنـيـةـ الرـومـ وـالـفـرـسـ وـأـدـبـهـمـ).⁽³²⁾ أـضـفـ إـلـىـ ذـلـكـ، أـنـ أـهـلـ الـحـيـرـةـ، وـنـظـرـاًـ لـاتـصـالـهـمـ بـالـفـرـسـ وـتـعـلـمـ لـغـتـهـمـ، فـقـدـ نـقـلـواـ حـضـارـةـ الـفـرـسـ وـتـقـاـفـتـهـمـ وـأـدـبـهـمـ إـلـىـ الـعـرـبـ، حـيـثـ كـانـواـ يـجـبـوـنـ أـرـجـاءـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ بـالـتـجـارـةـ

²⁸- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 1، دار الجبل، بيروت، ص 12

²⁹- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 1، دار الجبل، بيروت، ص 12

³⁰- المصدر السابق، ص 56

³¹- المصدر السابق، ص 35

³²- أحمد أمين، فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ص 16

ويستغلون بتعليم القراءة والكتابة، كما ساعدوا على نشر النصرانية في بلاد العرب، حيث تعد نجران أهم معلم لها. أيضاً، انتشرت اليهودية في جزيرة العرب وتكونت فيها مستعمرات يهودية، ونشر اليهود تعاليم التوراة وما جاء فيها من تاريخ الخلق والبعث والحساب وما يحيطها من أساطير وقصص.⁽³³⁾ هناك شيء يلفت الانتباه هو ما ذكره القبطي في كتابه "أخبار الحكماء" من أن الحارت بن كلدة من ثقيف من أهل الطائف رحل إلى أرض فارس، وأخذ عنهم الطب وجاد في هذه الصناعة واشتهر بين العرب. ثم تجد حديثاً لابن أصيبيعة في كتابه "طبقات الأطباء" أن النضر بن الحارت بن كلدة بن خالة النبي -لاحظوا صلة القربي- اجتمع مع العلماء والأفضل بمكة وغيرها وعاشر الأحبار والكهنة، واشتغل وحصل من العلوم القديمة الشيء الكثير، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء من الحكمة وتعلم من أبيه الطب أيضاً.⁽³⁴⁾ أيضاً الإشارة التي وردت في كتاب مفهوم النص لنصر حامد أبو زيد من أن زيد بن عمرو بن نفيل كان من الأحناف، ورفض شعائر العرب وشرائعهم، وكان يطلب دين إبراهيم، فلم يتصرأ أو يتهدى. هذا الحنفي قد التقاه النبي وتحدثاً في أشياء تخص شعائر العرب، منها الذبح على النصب. والحادية نقلها الكاتب عن البخاري.⁽³⁵⁾ نضيف كذلك ما ورد في البخاري عن عائشة في بدء الوحي من أن خديجة انطلقت بالنبي إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عم خديجة، وكان امرأً تتصرأ قبل الإسلام، ويكتب العبرانية ويقرأ الإنجيل.⁽³⁶⁾

إذن، فالعرب لم يكونوا معزولين عن العالم، والنبي لم يكن معزولاً عن حوله؛ فطريقة العزل التي تبناها كاتبو السيرة كان الغرض منها إثبات صحة الوحي عن الله، وإلا من أين لشخص أمي معذول يعيش في جزيرة معزولة أن يأتي بمشروع متكامل. نحن نقول أن النبي الذي ولد سنة 571 م؛ أي بعد عام فقط من معركة "عين دباغ"، قد نشأ وشب في ظل التحولات العظيمة التي كانت تحصل، وبلغ مشروعه بتأثير من ظروف نشأته الخاصة كونه يتيم وفقير من جهة، وينتمي إلى بني هاشم الذين أساندت لهم المهام الدينية، ومن جهة أخرى تأثر بالتدفق التجاري والفكري والثقافي على أرض الحجاز.

لقد جاء النبي بمشروع مجتمع طموح، يهدف إلى الوحدة والأخوة والعدالة الاجتماعية والسلام. وطبعاً، وفق المنظومة الفكرية للعالم القديم، فقد تبني بصدق فكرة النبوة والوحى ودافع عنها ليمرر مشروعه من جهة، وينافس المشاريع السابقة. ننبه إلى أننا لا نعاود مناقشة ظاهرة الوحي من وجهة النظر التاريخية والثقافية، إلا أنها نحيل إلى كتاب مفهوم النص لنصر حامد أبو زيد، فقد ناقش أسباب النزول والمكى والمدنى والناسخ

³³ - حسن إبراهيم حسن، المصدر السابق، ص 64

34 - أحمد أمين، المصدر السابق، ص 133

³⁵- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص 69

³⁶ منار القارئ في شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ص 42

والمنسوخ وأفاض في ذلك.⁽³⁷⁾ غير أننا لا نتبني موقفه الوسطي من كون الوحي رسالة السماء جاءت لتحل مشكلات العرب، لكن بأدواتهم، وهو موقف قرير مما قرره المعتزلة، نحن ننفي أية إمكانية حدوث ذلك تبعاً لما قررناه سابقاً من استحالة الاتصال.

إن المشروع النبوي أخذ في اعتباره كل التطورات والاحتياجات والأملاك التي راودت العرب في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، وقد نجح في فرض مشروعه⁽³⁸⁾ مستعيناً بعلاقاته الشخصية وقيم القبلية والتحالفات، خاصة مع الأوس والخزرج الذين كانوا في أمس الحاجة إلى زعيم وقائد يوحدهم ويواجهون من خلاله التحديات المفروضة عليهم. غير أن التاريخ علمنا أن هناك بونا شاسعاً بين المشاريع وبين تطبيقها في الواقع. إذ بعد وفاة النبي مباشرة - ومثله في ذلك الكثير من الأمثلة في التاريخ من اهتزاز المشاريع مباشرة بعد وفاة الزعيم - بدأ الصراع حول الخلافة بداية من حادثة السقيفة، حيث تصارع المهاجرين والأنصار حول من يملك أحقيّة الخلافة⁽³⁹⁾، إلى انحراف عثمان بن عفان عن المشروع النبوي وإحيائه لقيم القبلية بتوليه أقربائه في مناصب الحكم وإجازال العطاء لهم، ما أثار سخط الجماهير العاطلة بسبب توقف الفتوحات، فأدى ذلك إلى قتله⁽⁴⁰⁾، ثم ما حدث في خلافة علي بن أبي طالب متمثلاً في معركة الجمل بين علي وعائشة، ثم معركة صفين بين علي ومعاوية، وما نتج عنها من خسارة ما يقارب خمسة عشر ألف من المسلمين فيهم الكثير من الصحابة. وبعد تحول الملك إلى الأمويين، كاد المشروع النبوي أن يندثر بسبب عنصرية بنى أمية وإحيائهم لقيم العربية قبل الإسلام، تلامهم العباسيون الذين استسلموا لواقع الحال وما يقتضيه، مما بقي من المشروع غير شعارات ترفع وشعائر تؤدي وأحلام بعودة الماضي المجيد الذي نرى أنه مضى وانتهى ولن يعود.

³⁷ انظر: نصر حامد أبو زيد، **مفهوم النص**، ص: 29

³⁸ سليم أبو طالب سليم، *أثر المتغيرات الاقتصادية على الفكر الإسلامي*، مكتبة الإشعاع الفنية، القاهرة، ص 65.

³⁹ احسان النص، المصدر السابق، ص ص 186-187.

⁴⁰ سليم أبو طالب سليم، المصدر السابق، ص 74

خاتمة

يمكن القول، إن المنظومة الفكرية للعالم القديم كانت ترحب بالوحى وتتقبله بصدر رحب كونه يسهم في تفعيل حركية العقل والمجتمع والتاريخ، بغض النظر عن نجاحاته وإخفاقاته. أما اليوم فالمنظومة الفكرية الحالىة لا تحتاج إلى الوحى، أو على الأقل يمكن القول إن ضرره أكبر من نفعه، يظهر ذلك في ما يسمى الربع العربي والدعوات الطوباوية لتطبيق الشريعة وما يتترتب عنها من تطرف واحتكار للحقيقة وتكفير.

نريد أن نفكر بحرية ونطرح المشاريع التي تستجيب لتحدياتنا... ببساطة، إن البيت القديم قد تصدع، وهو آيل للسقوط، فلنبن بيتاً جديداً.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com